نلاحظ في غالبية الحكايات الشعبية أنّ المقهورين يتميزون بشوق حارقٍ إلى السيادة والتسلط يدفعهم إلى انتهاز الفرص وابتكار الأساليب التي تجعلهم يتحررون من دونيّتهم المؤلمة. بيد أنّ الحكايات الشعبية لا تتوقف عند عوامل الظلم بقدر ما تفيدنا عن أحوال المظلوم، إذ ليس المظلومون متساوين من الناحية النفسية: فالسيّد أو الإنسان النبيل قد يَظْلم أكثَرَ من الإنسان الوضيع، ومع ذلك فهو لا يَعْمد إلى الانتقام والتنكيل بالآخرين، ولا يتخلى عن قيمه، ولا تستعبده شهوةُ السلطة. الحكايات الشعبية تنبّه القارئ او السامِعَ إلى أن ثمة شراً في العالم، وعلى البريء أن يَحْذر منه عن طريق التعمق في نوازع النفس البشرية.

ولا نبالغ إذا قلنا إنّ الخادمةَ، كما تدلّ سياقُ الحكاية، تجهل نفسها، وجهلُ النفس هو سبب الآلام الكبيرة. فهي لا تعرف أنها قبيحة الشكل، وكأنّما الدمامة الجسدية رمزٌ للدمامة النفسية، أو كأنما هي تحتاج إلى نوع من مرآةٍ معرفية لتَفْهَمَ الحياةَ على وجهها الصحيح. ولذلك فما إن تضربها سيدتُها وتعود تملأ الجرة من جديد حتى تنتبه هذه المرّة إلى الأميرة التي يجوز اعتبارُها مثلَها الأعلى في الجمال الذي تودّ الاستيلاء عليه، لا بالترقي الذاتي بل بالتسلّط والعنف، فتغرز في رأسها دبوساً سحرياً يحوّلها إلى حمامة لا تملك الدفاع عن نفسها.

إنّ حلم الخادمة في أن تصبح أميرة يعود إلى أنّ المقهور يحلم دائماً بسلطة عليا تبلسم جراح دونيّته. والأسلوب عينه يتكرر لتحقيق هذا الحلم: إنه الحيلة التي تدلّ على نوع من معرفة الآخر وسبر غوره. كما تدلّ على سذاجة الأميرة التي تقع ضحية هذه الحيلة. وحكاية الأطفال الشعبية تركّز على المعرفة السقراطية، على المعرفة السيكولوجية التي تقود إلى فردوس الأمان، لا المعرفة الكتبية التقليدية التي قد لا تسمن أو تغني من جوع. ولا ريب أن هذا الجهل المعرفي هو الذي يجمع الخادمة والأميرة، لكنّ ما يفرقهما هو دهاء الأولى وسذاجة الثانية.. دون أن ننسى أن سيكولوجية الإنسان الوضيع تتميز بالحقد الأعمى: فالأميرة لم تظلمها مثل سيدتها. وأما الإنسان النبيل أو السيد فهو المتوازن داخلياً لكنه يتعذب لأنه لا يعرف، وما إن يعرف نفسه ونفسَ الآخرين حتى يتوقف العذابُ ويدخل هذا الإنسان فردوس السعادة.

هكذا يعود عزيز مع الماشطات فيرى حبيبته قد تحولت إلى خادمة قبيحة الشكل لأنّ جنّيّةً شريرةً قد جعلتها على هذه الصورة المنكرة. لكنّ موقفه منها يطرح تساؤلات عديدة. فهو لم يرفض الزواج منها لاعتبارين مهمين: الأول أنه وعد «فتنة» بالزواج وهو لا يحب أن يخلف وعده. والثاني أن عزيزاً أَمِلَ أن تشفق الجنيةُ على «فتنة» فتعيدها إلى صورتها الأولى الجميلة. على أنّه لم يتزوج الخادمة حقاً، بل هجرها وقبع في غرفته وحيداً كئيباً. إن موقفه هذا هو على نقيض من موقف الخادمة، إذ إنه يتمسك بالقيم الخلقية التي تتعادل مع الصحة النفسية في حكايات الأطفال الشعبية. وأما هي فقد راحت تشبع في القصر لذتين هما أساس حياتها الوضيعة: لذة الطعام ولذة إعطاء الأوامر للخدم. ثم إنها لم تبالِ بموعد تأجيل الزواج لأنها لا تزال تعيش في مرحلة بدائية لا تقوم فيها عاطفةُ المشاركة بدور كبير. إنها تشبه إلى حدٍّ ما الأمير عزيزاً عندما كان لاهياً عازباً في القصر قبل سفره. ولكنْ شتّان بين الاثنين؛ فعزيز لم ينحدر إلى مستوى بهيمي رغم نرجسيته وحذره من الوقوع في الحب.

لكنّ الحمامة ما فتئت تطير قرب نافذة القصر نائحةً نواحاً محزناً. وطبيعي أن ترتاع الخادمة من الحمامة لأنها تهدِّد وجودها بالذات. وبعبارة أخرى فإنّ الخادمة لا تخاف من الحالة البدائية التي تتخبط فيها، بل تخاف من الآخرين، وتتجاهل معرفة النفس وإمكانية ترقّيها. لذلك أصدرتْ أوامرها بذبحها وتقديمها لها طعاماً طيباً. وبهذا تُشبِع لذتين: لذة الأكل ولذة القضاء على غريمتها؛ فكأنّ المقهور لا يكتفي باضطهاد السيد النبيل بل يعمد إلى سحقه كي لا تبقى له بقية. إنّ نزعات التدمير والاستهلاك، استهلاك الطعام واستهلاك وجود الآخرين، بارزةٌ قوية في شخصية الخادمة القبيحة، وهو الأمر الذي يحيلنا على الشخصيات السادية المعروفة بنزعتها الموتية (النيكروفيلية) المعادية للحياة. أَوَلَمْ يكن طغاةُ التاريخ مثل هذه الخادمة المقهورة؟ ألم يكونوا مقهورين مثلها، لكنهم بدلاً من أن يتخطوا القهرَ إلى التوازن النفسي (كما ستفعل «فتنة») نراهم يحوّلون الأرض إلى مسلخ أو معتقلٍ يضطهدون فيه البشر، لا لشيءٍ إلا لأنهم معقَّدون ظُلموا قليلاً أو كثيراً في طفولتهم أو شبابهم؟

لكنّ الحكاية إذ تتأزم هنا لصالح الإنسان المقهور تعود بمثل السحر فتتجدّد كالميت الذي يُبعث من رماده، فيتحول مسارُ الأحداث لصالح الإنسان السيد النبيل أي الأمير عزيز والأميرة فتنة. والحكاية الشعبية عامةً تعطينا درساً ثميناً: فإذا كان لا مفرّ من الآلام بسبب ضعف الخبرة وضآلة المعرفة السيكولوجية، فإنّ هذا لا يدعو إلى اليأس. فالمقهور هو الذي ييأس من مثال الخير في نفسه ولذلك

ينحاز إلى التسلط والانتقام، أي إلى الدونية. وبعبارة أخرى، يبقى السيد سيداً والنبيلُ نبيلاً رغم كل المصاعب والنواقص. أما المقهور فيظل (للأسف) عبداً وضيعاً لأنه ارتضى لنفسه هذا المثال الشرير، ومَنْ كَفَرَ بنفسه فلا مغفرة له أبداً. لقد ماتت الحمامة، لكنّ موتها كان بدايةَ حياةٍ جديدة. لا هزيمةَ نهائيةً عند السيد النبيل، ولا نصر نهائياً عند العبد الوضيع. لقد تساقطتْ نقاطُ الدم من الحمامة القتيلة ونشأتْ بدلاً منها ثلاثُ ليمونات. وكان الأمير عزيز يراقب المشهد من النافذة فأدرك بتجربته أنّه أمام المشهد السحري القديم ذاته. لكنه الآن لم يعد مفتقراً إلى النضوج لأنه مرّ من قَبْلُ بتجربة المشاركة، ولأن غياب حبيبته أذكى فيه شعلةَ العذاب التي تنمّي مشاعرَ العطاء والغيرية. كأنّ مشاعر الحب لا تكتمل الا بنوع من الألم والحرمان يقاسيه الإنسان فيذيب فيه جدارَ الأنانية. وهكذا أعطى عزيزٌ الكأسَ إلى الأميرة «فتنة» بعد أن شقّ الليمونات غيرَ هيّاب، الأمر الذي يدلّ على نضوجه العاطفي والنفسي. ولو لم يكن الأمير قد تحول في هذه المرحلة تحولاً كيفياً لرأيناه يفعل كما عهدناه سابقاً، ولكنه تخطى الصعاب القديمة وتحوّل إلى إنسان جديد يَقْبل الحُبَّ ويعطيه. لم تعد تراود عزيزاً صورةُ الأم، ولم يعد متذبذباً كما كان عند مروره بملكات الفصول، ولم ينكص إلى الوراء كما فعلت الخادمة، بل تقدم إلى الأمام. وعملية النموّ من أهم الأمثولات التي تركّز عليها حكايات الأطفال الشعبية. ولا مبالغة إذا قلنا إنّ النمو والحياة أمران متعادلان.

*

على أنّ الحكاية تستلزم تأويلاً جديداً. فإذا كان من المستحيل ـ عقلاً ـ أن تتحول «فتنة» إلى طائر، فإنّ أحداث القصة تشير برمزيتها إلى إمكانية تحوُّل فتنة ـ وهي رمز الصبيّة الناهدة إلى الزواج ـ إلى امرأة فظة كما فعلت الخادمةُ القبيحة. وهكذا فإنّ الحكاية تنبّه الفتاة إلى أن الزواج ليس نكوصاً، بل هو عملية نموّ وصيرورة وتخلٍ عن الذات العتيقة أي عن النزعات ما قبل التناسلية أو ما قبل العاطفية. بعبارة أخرى يمكن القول إنّ عقل فتنة الباطنَ يحتوي على الخادمة القبيحة، أما تحوُّلها حمامةً فيشير إلى حالة التسامي، إذ الحمامة رمز للروح في اللاوعي الشرقي والديني منه بنوع خاص. وأما موت الحمامة فيحيل على تجربة الألم التي تنّمي الشخصية عند الإنسان النبيل كما في الفلسفة الجبرانية المعروفة وفي تجربة الشعر الحديث. فالحمامة مرحلة وسطى بين الخادمة وبين فتنة الجديدة. وهذه الحالة البرزخية ينبغي أن تتعرض للموت أي للألم كي تتحول إلى حالة أرقى... مثل الدودة التي تصير فراشةً جميلة لكن بعد أن تمر بمرحلة نِصْفية فيها بعضُ القديم وبعضُ الجديد. إنها الجدلية التحولية التي تُلمع إليها الأديانُ وعلمُ السيمياءِ السحري.

حكاية الأطفال الشعبية، اذن، تطلب من الفتيات ألا يتحولْن بعد الزواج، كما تطلب من الشبّان ألا يخافوا من العطاء والمشاركة. الحكاية تعطينا امثولة سيكولوجية مهمة: فالأميرة فتنة تمنع الملك من تنفيذ حكم الإعدام بالخادمة وترضى بطردها من المملكة. إنها، في هذا، مثال المروءة والرحمة بل الغفران بمعناه الديني والسيكولوجي أيضاً. علينا، تبعاً لذلك، أن نسامح لأنّ المسامحة في ظروف محددة من شيم السيد، والحقد والانتقام والتسلط من شيم العبيد الوضعاء. فأنْ تُسامحَ يعني أن تتخطى مرحلة قديمة وتشرف على أخرى جديدة. ومعلوم أنّ الحياة تجدُّدٌ وصيرورة، ولذلك تتعارض جوهرياً مع الحقد الأعمى والانتقام المتطرف.

*

هكذا تنتهي الحكاية نهايةً سعيدة، عكس حكايات **كليلة ودمنة** التي يموت فيها البريء موتاً مأساوياً مفجعاً. لقد حدثتْ تحوّلاتٌ طيبةٌ حقاً: فعزيز دخل سنّ الرشد الحقيقي، ولم يعد ذلك الفتى اللاهي، وتحرّر من ارتباطاته اللاوعية بالأم؛ وأبوه قرّتْ عينُه بزواج سعيد؛ والأميرة فتنة تخلصتْ من لعنتها المشؤومة وعادت أنسيّةً جميلةً أو هي تحررتْ من لاوعيها القبيح كما تمثّله الخادمة؛ وأما الخادمة فهي مدعوّة لإتمام إنسانيتها ويكفيها رحمةً أنها غُفر لها رغم ما فعلته بالقصر وسكّانه. على القارئ أو السامع، إذن، أن يتعلم لا بالموعظة أو النّصح المباشر، بل بالرمز والايحاء: فهو مدعوّ إلى أن يعيش الحياة الحقيقية، لا أن يتذمر من أنّ الحياة غائبة. فحكايات الأطفال الشعبية تعترف بالأمر الواقع، لكنها تعالجه بالحكمة والتروّي السيكولوجي... وأما الأدب الرسميّ فيستمرئ العذاب ويغوص عميقاً في الجرح دون أن يدلّ القارئ على طرق الخلاص وأساليب التخطّي السليمة. من هنا مسّت الحاجةُ إلى اكتشاف هذا الأدب [الشعبي] العظيم الذي يتضمن الفلسفةَ والتربيةَ وعلمَ النفس، بالإضافة إلى مقوّمات الفنّ القصصي المعروفة. ولعلّ كتاباً يعدّه كاتبُ هذه السطور قد يَسدّ ثغرة في الدراسات النقدية [العربية] وفي علم تحليل الرموز، وقد يُدرك بعضُ القرّاء عندها أنّ الآداب الشعبية ليست من سقط المتاع بل هي الطريق الأكثر إيجابيةً من بين طرق التعبير الأدبي والفني.

بيروت

قصص قصيرة

هزوان الوز - ابراهيم درغوثي - محمد ابراهيم الحاج صالح - لينا الحاج معلا - جنان جاسم حلاوي

تقرير تفتيشي

هزوان الوز

● **السيد مدير التربية:**

استناداً إلى حاشيتكم رقم (...) تاريخ / / ١٩٩ المتعلقة بإجراء التحقيق في الشكوى المقدّمة من قِبل المدرِّسة المساعدة «شريفة أشرف»، رئيسة الدروس الفنية للثانوية الصناعية والنسوية في بلدة تل العناتر، بحقّ مدير الثانوية «عنتر أبو شنب»، الذي اتهمتْهُ باستغلال منصبه للاستفادة من مستلزمات التدريب في الثانوية، فقد قمتُ بإجراء التحقيق في الموضوع، وإليكم النتيجة.

● **أمين السر حازم البري**

نشأ الخلاف على طريقة حساب درجات المحصّلة النهائية، وكيفيةِ مَنْحِ خمس الدرجات المساعدة: أيتم ذلك استناداً إلى التعليماتِ الوزارية، أم لِما تسير عليه المدارسُ الفنية الأخرى؟

وقد توجهت الآنسة شريفة أشرف نحو المدير قائلةً: «أنت صناعي، ولا تفهم شيئاً في الفنون النسوية». واشتد الخلافُ بينهما إلى درجة الصراخ، حتى قام مديرُ الثانوية بضرب رئيسة الدروس الفنية على وجهها، فردّتْ بضربه بمنفضة السجائر، ثم بإبريق الماء فلم تُصِبْه، وقالت له: «زوج القـ.....». فرد عليها: «شَرْ...».

وهنا تدخل البعض، وأمسكوا الآنسة شريفة أشرف وأخرجوها من الإدارة. وبعد نصف ساعة حضر إلى الثانوية وفدٌ من الرابطة والنقابة للمصالحة، فرفضتْ ذلك.

استغرب معظمُ المدرسين والطلاّب الحادثَ، فقد لاحظ الجميعُ العلاقةَ الخاصة التي تربط المدير بالآنسة شريفة: من الدلال الزائد والاجتماعات المغلقة التي يعقدانها في الإدارة بعد قفل الباب، إلى مشاركة المدير في جميع الرحلات المدرسية التي تنظمها الآنسة شريفة، رغم أنه لعشر سنوات خلت لم يكن يشارك في أية رحلة. وقد حدث الشرخُ في العلاقة عندما اقترح الأستاذ عنتر أبو شنب على مديرية التربية فرضَ عقوبة بحق الآنسة شريفة أشرف، وهنا بدأ العد التنازلي. واشتدت الخلافات حين حاول المدير أخذ قطعة قماش من مستودع المدرسة لزوجته، فاشترطت الآنسة شريفة عليه أن تأخذ قطعة قماش هي أيضاً، ويبدو أن الطرفين لم يتفقا.

● **المعلم ابراهيم الحايك**

سمعتُ أصواتاً قوية بينما كنت متجهاً إلى غرفة المدرِّسين، فاتجهتُ نحو غرفة المدير حيث مصدر الصراخ. فتحتُ الباب ودخلتُ مع زميلي عيسى حمد، فشاهدنا الآنسة شريفة تتهجم على المدير، وتنطق بكلمات غير أخلاقية، مثل «ابن القـ....»، «وابن الشـ...» وما شابهها. وكان إبريق الماء مكسوراً.

وبدا لي أنّ السبب المباشر للخلاف يتعلق بطريقة حساب الدرجات، وإنْ كنت أعتقد أنّ هناك أسباباً أخرى لأنّ قرارات الوزارة واضحة وصريحة في هذا الشأن.

أما عن طبيعة العلاقة بين الطرفين فالله أعلم، إلا أنّني سمعتُ ذات يوم بعضَ الطلبة يتحدثون عن الترددُ المستمر للمدير ورئيسة الدروس الفنية إلى مطعم المحطة الذي يملكه والدُ أحد طلابنا لتناول الغداء أو العشاء.

● **المعلم عيسى حمد**

عندما دخلتُ وزميلي ابراهيم الحايك غرفةَ الإدارة كان أمينُ السر يحاول إبعاد الطرفيْن واحدهما عن الآخر، والآنسة شريفة تشتم المدير بكلمات بذيئة أَخْجل من ذكرها. فأمسكْنا رئيسةَ الدروس الفنية وأخرجناها من غرفة المدير.

وباعتقادي بدأ الخلاف بين الطرفين عندما شاهدتِ الآنسة شريفة زوجةَ المدير في الشارع مرتديةً قميصاً مماثلاً للّذي أهداها إياه المديرُ قبل فترة، وكلا القميصين من إنتاج «شركة الأناقة للألبسة» العائدة بملكيتها لوالد أحد طلابنا؛ فقد اعتاد المدير وأفرادُ أسرته ارتداءَ منتجات تلك الشركة، وتقديمَ هداياه لخليلاته منها أيضاً. ومنذ عدة أيام امتنع صاحبُ الشركة عن إرسال ولده إلى المدرسة، وأوضح أنّ «الشهادة التي ستمنحونها لابني لا تساوي رُبْعَ ثمنِ الملابس التي أخذها المدير».

● **الآنسة براءة مظلوم**

كان منتظراً حدوثُ هذا الشجار، إذ بدأ يظهر الخلاف

بين الطرفين عندما زاد اهتمامُ المدير بطالبة الصف الحادي عشر «قمر الشعلان». والحق يقال إنّ جمال هذه الطالبة فوق الوصف؛ حتى ملكة جمال الكون [السابقة] جورجينا رزق لا تستطيع الصمود أمامها. ولم يستطع المدير كبح جماحه تجاه هذه النعمة الإلهية، ولاسيّما أنه زير نساء، فبدأ يدعوها يومياً إلى غرفته بحجج مختلفة. وهذا ما أثار الأسئلة والشكوك لدى الجميع، وراحت ألسنةُ الطالبات تلوك عبارات مختلفة: ـ «احترق محرّك الآنسة شريفة، فقرر استبداله بمحرّك آخر»... ـ «شبع منها ورماها مثل الكلبة»... ـ «ما شاء اللّه على مديرنا، يتحسّن ذوقُه يوماً بعد يوم، أصبح يميز بين طعم العسل وطعم الزعتر»... ـ «ربما اكتشف متأخراً أنّ نمرة الآنسة شريفة عمومية، وهو يفضّل النُّمَر [الأرقام] الخصوصية».

وكما يقولون: الرب لا يمنح الشخص كل شيء؛ فقد كانت قمر طالبة كسولة. واستغلت الآنسة شريفة هذه النقطة عندما وصلتها الأخبار، ولاسيّما أن تحذيراتها للمدير لم تجد أذناً صاغية، فبدأتْ تضيّق الخناق على «قمر» في درجات أعمال السنة وتهدّدها بالرسوب، و«قمر» تشكوها للمدير، إلى أن أتت لحظة المواجهة والصدام، وحدث ما حدث.

● رئيسة الدروس الفنية شريفة أشرف

كل ما لديّ ذكرتُهُ في الشكوى التي قدمْتُها إلى مديرية التربية، وأؤكّد بأنّ المدير عَرَضَ عليَّ مراتٍ عدة أن نلتقي على انفراد في إحدى الشقق.

● مدير الثانوية عنتر أبو شنب

الآنسة شريفة مريضة نفسياً ومغرورة، وعلاقاتها سيئة مع جميع الزملاء والزميلات والطالبات، وقد حضر أكثرُ مِنْ وليِّ أمرٍ يشكوها إلى الإدارة، وحالت سمعتُها السيئة دون إرسال عددٍ من الأولياء بناتهم إلى الثانوية. وحاولتُ أن أجعلها تعيد النظر في سلوكها وتصرفاتها مع الآخرين، وكنت أذكّرها دائماً أننا هنا في مؤسسة تربوية، ولكنْ دون جدوى؛ فَذَيْلُ الكلب أعوج. وهذا ما دعاني إلى توجيه كتاب إلى مديرية التربية أطلب فيه فرضَ عقوبة بحقها، ونَقْلَها إلى مدرسة ابتدائية لأنّ وجودها في الثانوية يشكّل خطراً على الطالبات.

وعندما علمتْ باقتراح العقوبة فقدتْ صوابها وزادت حماقاتها على الصعد كافةً. ويوم الحادث طلبتُ منها الدرجات التفصيلية للفصل الأول للمواد التخصصية النسوية، فتهربتْ من إعطاء الجداول، ثم سألتُها عن الطريقة التي اتّبعتْها في حساب المحصّلة النهائية، فأجابت أنّ هذا يدخل ضمن نطاق عملها. ذكّرتُها بضرورة التقيد بالتعليمات الوزارية رقم (...) تاريخ / / ١٩٩ ولاسيما الجدول رقم ٣ الذي يوضح ذلك. فرفضت الاستماع قائلة: «أنت لا تفهم شيئاً بالفنون النسوية... بل حمار يلبس بنطالاً. سأعمل حسب قناعاتي، وأسلّم الجداول إلى قسم الامتحانات مباشرةً».

لم أصدق ما سمعتُ، ولم أستطع تحمل مثل هذه الإهانة، فصرختُ محذّراً إيّاها أن تلتزم حدودها وتعتذر، فلطمتني على وجهي، وجرحَتْهُ، وتابعتْ ضربي بإبريق الماء، ثم بمنفضة السجائر. تمالكتُ نفسي حتى آخر درجة، ولم ألمسها على الإطلاق لأنّ ضرب المرأة معيب. بعدها دخل الزميلان عيسى حمد وابراهيم الحايك وأخرجاها من غرفتي، وهي تصرخ: «اتركوني... سوف أذبحه...» وضربتْ رأسها بالجدار.

وأمّا عن اتهامي بمحاولة أخذ قطعة قماش من مستودع المدرسة، فأود أن أذكّركم بأنّ عائلتنا هي إحدى العائلات الغنية في المحافظة، وأنّي أملك مائة دونم تُزرع سنوياً، وإخوتي يملكون محطةَ الوقود الوحيدة في البلدة، ولا داعي لأنْ أذكّركم بتاريخ عائلتنا النضالي. وبالتالي فلا يمكن أن آخذ قطعة قماش مهما كان ثمنها، وخلال عملي خمسة عشر عاماً مديراً لم آخذ شيئاً إلى منزلي من الثانوية، بل على العكس تماماً: إذْ كثيراً ما دَفَعْتُ من جيبي لتذليل بعض الصعوبات وتسيير الأمور وإقامة الاحتفالات في المدرسة.

ومرة ثانية أبيّن لكم أنّ وجود الآنسة شريفة في الثانوية سيكون خطراً على الطالبات، إذ من المؤكد أنّها ستتابع محاولاتها في جرفهنّ على طريق الانحراف والرذيلة؛ ومَنْ رفضت الانصياع أزعجتها وأساءَت إلى سمعتها مثلما فعلت مع بعضهنّ.

وأخيراً، فإنّ ما تقوم به الآنسة شريفة أشرف يُحبط كلّ الجهود والمساعي التي أبذلها لرفع الطالبات إلى أعلى مستويات التربية الفاضلة والتعليم المثمر.

● الطالبة قمر شعلان

ليس لدي أيّ شيء أقوله.

● وثيقة أخيرة

في مساء اليوم الذي بدأتُ فيه التحقيق وجدتُ عند عتبة باب بيتي ورقةً، كُتب فيها: «لا تُتعبْ نفسك كثيراً في البحث، فقد بدأ الخطأ عندما قرر والدا المدير في تلك الليلة السوداء ممارسةَ حياتهما الزوجية وزَرْعَ هذه البذرة الملعونة. ولو أنّ والده في تلك الليلة مارس شيئاً آخر، لوفّر على الطالبات تلك النظرات الجنسية الشهوانية»...

ولم أتمكن من معرفة صاحب الخط الذي كُتبت به الورقة.

● المطالعة والمقترحات

رغم أنه لم يمضِ على نقلي من التدريس وتعييني

مفتشاً في مديرية التربية سوى عامين، فإنَّها ليست هي المرة الأولى التي أُكلَّف فيها بالتحقيق في أمورٍ مخالفاتٍ تحدث في الثانوية الصناعية والنسوية، ومع مديرها عنتر أبو شنب من تجاوزات في استخدام أثاث الثانوية في غير مكانه الصحيح، وفي العلاقة المتوترة بينه وبين الجهاز الإداري والتدريسي، واستخدام الآلية المخصّصة لخدمة الثانوية في أغراض خاصة، وعدم وضعها تحت تصرف القسم الفني في الدوام العملي... إلى غير ذلك من التجاوزات التي لا مجال لذكرها هنا. وكنتُ في كل مرة أحاول نصحه لاستدراك الخطإ ومعالجته بأسلوب الحكمة والمنطق، ولكنني أفاجأ بأمور أخرى أشد وأقوى، وأخطاؤه الجديدة تجعل الأحداث السلبية تتراكم بعضها فوق بعض.

ولعلكم تَذْكرون حادثةَ تسريب أسئلة الامتحان وبيعها من قبل المدير، وحادثةَ اعتدائه على الآنسة ناريمان بيجو التي غيرت إفادتها بعد ممارسة الضغوط عليها. وآخر هذه الأخطاء العلاقةُ الحميمة التي ربطَتْه بالآنسة شريفة أشرف رئيسة الدروس الفنية في القسم النسوي، وهو القسم الذي يشكل جزءاً من المبنى، وتعود إدارته إلى مدير الثانوية الصناعية.

فلقد توطّدتْ هذه العلاقة، وأصبحتْ حديثَ الطلبة والجهاز التدريسي والناس في البلدة. إلا أنَّها أخذت تفقد حرارتها نتيجةَ أسباب غامضة، وانقلب الدلالُ الزائد إلى خصومةٍ دفعتْ بالمدير لأن يقترح عقوبة بحقها والطلب من مديرية التربية نقلها إلى مدرسة ابتدائية. غير أنّ أسباباً مادية أو غير مادية قد تكون الفتيل الذي أحدث الانفجار، ونتج عنه مَنْظَرٌ مروِّع، إذْ تجمَّع الطلابُ والطالبات وهم يشهدون مسرحية جديدة من نوعها في عالم التربية. وما أفاد به أمين السر والمعلِّمان كافٍ لأخذ فكرة عن طقوس هذه المسرحية.

ولَمّا كان عنتر أبو شنب «مدعوماً» بحيث لا تستطيعون ـ لا أنتم ولا المحافظ نفسه ـ إنهاء تكليفه مديراً للثانوية، واستناداً إلى التاريخ النضالي لعائلته، وعملاً بالتوصيات والاتصالات الخاصة التي وصلتني من بعض الجهات الرسمية... فإني أقترح ما يلي:

١ ـ تغيير اسم الثانوية الصناعية والنسوية، وتسميتها بمدرسة عنتر أبو شنب، وتوجيه كتاب شكر إليه، وذلك لحرصه الشديد على الطالبات من الانحراف في طريق الرذيلة.

٢ ـ تغريم الآنسة شريفة أشرف ثَمَنَ إبريق الماء الذي كسرته؛ ومعاقبتها بعقوبة الحسم (٦٪) لمدة ستة أشهر بسبب تهجمها على المدير، وتلفظها بعبارات سوقية؛ ونقلها إلى مدرسة ابتدائية بسبب الحاجة الماسة لأطفالنا إلى مثل هذه الخبرات التربوية.

٣ ـ إنهاء تكليفي مفتشاً في مديرية التربية، وإعادتي إلى التدريس.

يُرجى الاطّلاع والموافقة

المفتش عادل غضبان

دمشق

كَفَنٌ للأرْوَاحِ المَيِّتَةِ

ابراهيم درغوثي

١ ـ الكفّ والطّبلة

ضربتَ بكفّكَ على الطّبلة حتى احمرّت الكفّ. وضربتَ بعنف حتّى أصاب الكفَّ خدرٌ لذيذ سرى في كامل بدنك كلسعةٍ كهرباء خفيفة. بعدها، والعرق يُبلّلُ جبينك ويسيل على عنقك، عدتَ تدْريجيّاً إلى رقتِك وأنت تُعالج جلد الطّبلة بحذق الفنّان، فيخرج اللّحنُ من بين أصابعك كالحلم الدّافئ في ليلة شتاء.

وتتصايح النّساء فرحات، ويدخلن حلبةَ الرّقص مثْنى وثلاثَ ورباع، يحرّكن أردافهنّ في كلّ الاتّجاهات ويلعبن بالصّدور بمهارة، يستعرضْن زينتهنّ وحليهنّ: حنّاء منقوشة ملء الكفوف، وأحمر على الشّفاه، والعيون غطّاها الكُحل، والأفواهُ مدبوغة بالسّواد. وهنّ يتدافعن ويتضاحكن ويتلامسن ويتهامزن ويتغامزن، ويتساقطن مرّةً على الطّبلة ومرّاتٍ في حجرك، ويهربنَ خفيفاتٍ كرفّ الحمام. وأنت ترى بعقلك كل شيء، وتحلم بامتلاكهنّ. تقول لنفسك:

ـ هذه سمينة رجراجة تحذق الرّقصَ وأشياء أخرى لا محالة.

ـ وهذه الطّفلة ما زالت في بداية الرّحلة إلاّ أنّها نجيبة، أسمع دَقَّ قدميها على الأرض مُنغّماً وتحريكَ يدَيْها مُتّزناً، وعطرُها لذيذ.

ـ وهذه رقيقة كظلٍّ شجرة ياسمين...

وتفوح روائحُ الندِّ والبخور وعود القماري والجاوي

والكمّون، وتثور الزّغاريد... ويلكزك صديقُك صاحبُ المزمار فتفهم أنّ اللّحن قد اختلّ وأنّك قدْ سرحت بعيداً بخيالك المجنون، فتعود للطّبلة تضربها بالكفّ. تضربها حتى يُصيبَ يَدَك الخدرُ...

ويعمّ الهياجُ من جديد حلبةَ الرّقص، فتستغلّ فرصة عدم انْتِباه النّسوة وترفع يدك إلى وجهك تغطّي بالنّظارة السّوداء روحَكَ الميّتة.

٢ ـ تحت الشّمس

البنت الصّغيرة التي خرجتْ لتوّها من البحر نَثَرَتْ عليه قطراتِ ماءٍ حين نفضتْ شعرَها الطويل، فمدّ يديه يبحث عنها، لكنّها ضاعت في كل الاتّجاهات واختبأتْ وراء ضحكتها المشاغبة.

*

الرّجل الذي جاء إلى الشاطئ مسحوباً من أنفه كما تُسحب الثّيران اقتلع شَمْسِيَّته وطلب من زوجته أن تلحقه تحت جدار الكورنيش. قال لها: «ذاك الرّجل الجالس وراءنا رأيته يلحس صدرك بنهم ولم يخجلْ حين وقعتْ عيناي على عينيه!»

*

لم ير العَلَمَ الأسود الذي كان يرفرف عالياً على السارية، الطّويلة فهمس لنفسه: «ما أجملَ هدوءَ البحر هذا اليوم!»

*

الشبّان الذين كانوا يلعبون بالكرة على الرّمل أصابتهم الحيرة حين جلس وسط ملعبهم. ولم يقل شيئاً عندما تناوشته الأرجلُ من كلّ مكان، فغادروا إلى جهة أخرى ضاجّين بالضّحك.

*

صفير الشرطي المكلّف بحراسة الشّاطئ أَفْقَدَهُ أعصابه وجعله يصيح في وجه السّماء: «لماذا لا يكفّ هؤلاء الأطفال عن الصّفير؟ هل تحوّل الشّاطئ إلى ملعب كرة قدم؟!»

*

طرب لخشخة الرّمل تحت زفير الأمواج المرتدّة إلى الأعماق فأغفى تحت الشّمسيّة المُزركشة بأريج الرّبيع.

عندما أفاق، قام خفيفاً. خفتُ أن يدوس ظلّ شمسيّة في اندفاعه المجنون نحو الأمواج، فأعطيتُه يدي ومشيتُ أمامه وسط غابة الأرجل الكثيفة وصياح لاعبي الكرة وصفير أعوان الحماية المدنية وهمس العشّاق والضحكات المرشوشة بماء البحر.

٣ ـ العصا البيضاء

تمرّ بك السيارات مسرعةً وكأنّها تهرب من عصاكِ التي كنتِ تلوّحين بها. كنتِ تستمعين لِطَشيش الماء تحت العجلات فتقولين لنفسك:

ـ «ما أوسع رحمتك يا اللّه!»

وتعود السيّارات إلى عَدْوِها المجنون، لا تحفل بطول وقفتِك على الطّوار. ويمرّ الزمن، يلاطفك تارة فيمسح عن وجهكِ الأسى، وطوراً يهطل على رأسِك مطراً مدراراً.

ها هي سيّارة تقف بالقرب منكِ. يأتيك صوت لطيف:

ـ «ها! أنتِ يا امرأة! إلى أين تريدين الذهاب؟ لقد ودّعتْنا الشّمس وذهبت لتنام!».

تقولين للصّوت إنّك ذاهبة لمبيت الطّالبات، وإنّكِ هنا واقفة وقد تعاقبتْ عليك فصولُ السّنة، وإنّ السيارات التي مرّت من هنا كانت كلّها عمياء.

وتضعين في يده العنوان.

فيردّ عليك: «محظوظة أنتِ! طريقنا يمرّ من هناك!»

وتنزوين في المقعد الخلفي، والسيّارة تهدر، وصوتُ مطربة الشّباب يصدح بأغاني عبد الحليم حافظ وأنتِ تحبين كثيراً هذه الأغاني («جَانَا الهوى جانَا ورمَانا الهوى رمانا»). وتقولين لنفسك: لماذا يصمت سائق السيّارة، وهم في العادة كثيرو الكلام!؟ ويتغيّر صوتُ الطّريق تحت العجلات. يزدادُ الضّجيج، والسيّارة تخرج من حفرة لتدخل في أخرى.

وتقولين حين تمتد يدٌ تريد قطفَ التّفاح النّافر فوق صدرك:

ـ «اللّي شَبَكْها يخلّصها!»

وتزجرين اليد السارقة:

ـ «يا آدم! هذا التّفاح أخرجك من الجنّة فلا يغوينّك الشّيطان!»

ويَسكت المحرّكُ، فيضجّ قلبُك، وتبحثين عن النّجدة، لكنّ صوتك تكتمه يدٌ غليظة. وتحسّين كأنّ شيئاً يوضع على جنبك. تقولين: «نصل سكّين»! وتحاولين العودة إلى الصّراخ، فيضيع الصوت في الحلق.

حين همدوا سمعتِهِمْ يتهامسون: «لا تخافوا، فلن تعرف هذه المرأة وجوهنا!»

وتفرّ الطريق تحت عجلات السيّارة الهادرة، فتعودين من جديد إلى الوقوف على الطّوار تلوّحين بعصاكِ البيضاء في وجه الظّلام.